ـ 6 ـ

الدين

بعد يومين من فوزي بترشيح الحزب الديمقراطي في سباق الكونغرس الأمريكي؛ تلقيت رسالة بالبريد الإلكتروني من دكتور يدرس في كلية الطب بجامعة شيكاغو.

كتب الدكتور يقول: «أهنئك على فوزك التمهيدي الساحق والملهم. سررت لأنني صوت لصالحك، وأنا أفكر بصورة جدية بالتصويت لك أيضا في الانتخابات العامة. أكتب إليك لأعبر عن القلق الذي قد يمنعني في نهاية المطاف من تأييدك»

وصف الدكتور نفسه بأنه مسيحي يفهم التزاماته بوصفها شاملة وإجمالية. وقاده إيمانه إلى معارضة الإجهاض وزواج المثليين معارضة قوية، لكن قاده أيضا كما قال إلى مساءلة عبادة وثن السوق الحر واللجوء السريع إلى الحلول العسكرية اللذين ميزا على ما يبدو معظم السياسة الخارجية للرئيس بوش.

السبب الذي دعا الدكتور إلى التفكير بالتصويت لمنافسي لم يكن موقفي من الإجهاض بحد ذاته. بل لأنه قرأ عبارة استهلالية على موقعي على الويب تشير إلى أنني أحارب «المنظرين اليمينيين الذين يريدون سلب المرأة حقها في الاختيار» وأضاف قائلا:

> أستشعر وجود إحساس قوي بالعدالة لديك، والموقف المزعزع للعدالة في أي نظام سياسي، وأعرف أنك كنت صوت من لا صوت لهم. أستشعر أيضا أنك شخص نزيه وغير متحيز تقدر قيمة العقل والمنطق.. وبغض النظر عن قناعاتك، إذا اعتقدت حقا أن معارضي الإجهاض هم منظرون مدفوعون برغبات مشوهة ومنحرفة لإلحاق الأذى بالنساء، فإنك برأيي لست نزيها بل متحيزا.. تعرف أننا ندخل عصرا تحتشد فيه احتمالات الخير والشر، عصرا نكافح فيه لاستخلاص معنى منطقي من نظام

سياسي مشترك في سياق التعددية، عصرا يغيب فيه اليقين ولا نعرف الأرضية المؤسسة لإطلاق المزاعم والدعاوي المتعلقة بالآخرين.. لا أطلب منك في هذه المرحلة معارضة الإجهاض، بل التحدث عن هذه القضية بكلمات نزيهة غير متحيزة.

بحثت في الموقع وعثرت على الكلمات المسيئة. لم تكن كلماتي؛ بل كتبها الموظفون الذين يعملون معي لإيجاز موقفي المؤيد لإباحة الإجهاض خلال الانتخابات التمهيدية، في وقت كان فيه بعض المنافسين يضعون التزامي تأييد قرار المحكمة العليا (رو ضد ويد) الذي أعطى المرأة حقا غير مقيد بالإجهاض خلال الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل موضع المساءلة. وضمن شرنقة سياسة الحزب الديمقراطي، كان ذلك شعارا معياريا مصمما لتهييج القاعدة الشعبية. إن فكرة إشراك الطرف الآخر في القضية لا معنى لها، كما تقول الحجة؛ وأي إبهام لها يعني الضعف ضمنا، وتواجهه القوى المناهضة للإجهاض بمقاربة وحيدة الهدف ولا تعرف الرحمة، ولذلك يجب ألا تظهر أي ضعف.

لكن عند إعادة قراءة رسالة الدكتور، شعرت بوخزة خجل. أجل، هنالك المتزمتون في حركة مناهضة الإجهاض الذين لا أتعاطف معهم، الذين يحتشدون أمام العيادات أو يمنعون النساء من دخولها، ويرفعون صور الأجنة الممزقة في وجوههن ويصرخون بأعلى صوتهم؛ الذين يتنمرون ويهددون ويلجؤون إلى العنف أحيانا.

لكن هؤلاء المحتجين المعارضين للإجهاض كانوا يختلفون عن الذين ظهروا بين الحين والآخر في اجتماعات حملتي الانتخابية الحاشدة. فقد ظهروا عادة في مجموعات أصغر حجما في الأماكن القصية التي زرناها في الولاية، وقد ارتسمت على وجوههم تعابير التعب والإنهاك مع الإرادة والتصميم، حيث يقفون صامتين متيقظين خارج أي مبنى يعقد فيه الاجتماع، رافعين اللافتات المكتوبة بخط اليد وكأنها دروع أمامهم. لم يلجؤوا إلى أسلوب الزعيق أو الصراخ لإرباك الاجتماعات وإيقاع الفوضى فيها، مع أنهم أثاروا أعصاب كادر العاملين معي. في أول مرة ظهرت جماعة من المحتجين، دق أفراد فريقي الذين سبقوني إلى المكان جرس الإنذار؛ وقبل

خمس دقائق من وصولي، اتصلوا بسيارتي وطلبوا أن أندس خلسة من المدخل الخلفي كي أتجنب المواجهة.

قلت للسائق: «لا أريد الدخول من الباب الخلفي. قل لهم إننا سندخل من الباب الأمامي».

انعطفنا نحو المرأب فشاهدنا سبعة أو ثمانية محتجين مصطفين على طول الحاجز: عدة نساء متقدمات في السن وعائلة على ما يبدو ــ رجل وامرأة وطفلان صغيران. ترجلت من السيارة وذهبت إلى المجموعة، وقدمت نفسي. صافحني الرجل مترددا وذكر اسمه. بدا أنه في مثل عمري، يرتدي سروال الجينز وقميصا ملونا وقبعة الكرادلة في سنت لويس. صافحتني زوجته لكن النساء المسنات رفضن مصافحتي. أما الطفلان (وكانا في التاسعة أو العاشرة) فقد حدقا إلي بعيون فضولية.

سألت: «أتريدون الدخول إلى المبنى؟».

قال الرجل: «لا شكرا» وناولني كراسا. ثم أضاف: «سيد أوباما، أريدك أن تعلم أنني أوافق على معظم ما ستقوله».

«أقدر ذلك».

«وأعرف أنك مسيحي، ورب أسرة».

«هذا صحيح».

«إذن، كيف تؤيد قتل الأطفال؟».

قلت له إنني أتفهم موقفه، لكنني أخالفه الرأي. وشرحت مفسرا اعتقادي أن قلة من النساء يتخذن قراراً اعتباطياً بإنهاء الحمل؛ وأن أي امرأة حامل تشعر بالقوة الكاملة للقضايا الأخلاقية المعنية وتصارع ضميرها عند اتخاذ القرار المؤلم؛ وأنني أخشى أن يجبر حظر الإجهاض النساء على السعي إلى إجراء عمليات إجهاض غير مأمونة، مثلما فعلن في هذا البلد ذات يوم ومثلما يفعلن في البلدان الأخرى التي تعاقب الأطباء الذين يجرون العملية والنساء اللاتي يجرينها. واقترحت أن من الممكن لنا الاتفاق على طرق كفيلة بتقليص عدد النساء اللاتي يشعرن بالحاجة إلى الإجهاض أصلاً.

أصغى الرجل بتهذيب ثم أشار إلى إحصائيات في الكراس تدرج عدد الأطفال في الأرحام الذين يضحى بهم كل سنة، كما قال. بعد بضع دقائق، قلت إن علي الدخول لإلقاء التحية على المؤيدين والأنصار ودعوت المجموعة مرة أخرى إلى الدخول. رفض الرجل مجددا. وحين استدرت لأذهب، نادتني زوجته.

قالت: «سوف أصلي لأجلك. سوف أصلي لتغير رأيك»

لم يتغير لا رأيي ولا موقفي ذلك اليوم، ولا في الأيام التالية. لكنني تذكرت تلك العائلة حين جاوبت الدكتور وشكرته على رسالته. في اليوم التالي، وزعت الرسالة الإلكترونية على الموظفين والمساعدين وطلبت تغيير المفردات المستخدمة في الموقع بأخرى تعبر بأسلوب واضح لكن بسيط عن موقفي المؤيد لإباحة الإجهاض. في تلك الليلة، قبل أن أذهب إلى السرير، تلوت صلاتي، ودعوت الله أن يساعدني على معاملة الآخرين بالنية الطيبة ذاتها التي أظهرها الدكتور نحوي.

من القضايا المسلم بها أننا، نحن الأمريكيون، شعب متدين. ووفقا لآخر استطلاعات الرأي، تبين أن 95% من الأمريكيين يؤمنون بالله، وأكثر من الثلثين ينتمون إلى إحدى الكنائس، و37% يعدون أنفسهم مسيحيين ملتزمين دينهم، وعدد الذين يؤمنون بالملائكة يفوق كثيرا عدد المعتقدين بالارتقاء والنشوء. ولا ينحصر الدين في أماكن العبادة فقط. فالكتب التي تزعم اقتراب نهاية الزمان تبيع ملايين النسخ. والموسيقى الدينية المسيحية شائعة ومنتشرة على أوسع نطاق، ويبدو أن كنائس كبرى جديدة تظهر يوميا في ضواحي كل مدينة رئيسة، لتوفر لأتباعها كل شيء: من الرعاية النهارية إلى دروس تعلم اليوغا والرقص معا. ورئيسنا يكرر بشكل روتيني كيف غير المسيح قلبه، ولاعبو كرة القدم يشيرون إلى السماء شكرا وحمدا بعد كل هدف يسجلونه.

ليست هذه الموجة من التدين جديدة بالطبع. فقد أتى الحجاج الآباء إلى شواطئنا هربا من الاضطهاد الديني والممارسات الدينية، والتزموا نسختهم المتزمتة من الكالفينية*. أما حركة الإحياء الإنجيلية فقد اكتسحت الأمة مراراً، واستخدمت

* نسبة إلى جون كالفين (1564-1509)، اللاهوتي السويسري (الفرنسي الأصل)، الذي انشق عن الكنيسة الكاثوليكية (1533) ووضع الأركان المؤسسة لما يعرف اليوم بالكنيسة المشيخية. (م)

الدين موجات متلاحقة من المهاجرين لترسيخ حياتهم في عالم جديد غريب. وأطلقت المشاعر الدينية والنشاطية الدينية بعضا من أقوى حركاتنا السياسية، من إلغاء الرق إلى الحقوق المدنية إلى شعبوية السهوب بزعامة وليام جيننغز بريان.

ومع ذلك، إذا سألت قبل خمسين سنة أبرز المعلقين الثقافيين عن مستقبل الدين في أمريكا، فسيقولون لك دون شك إنه في حالة انحسار وتراجع. الدين القديم يذبل ويذوي، كما تؤكد الحجة، ويقع ضحية للعلم، والمستويات الرفيعة من التعليم بين عامة السكان، وأعاجيب التقانة. صحيح أن المواطنين المحترمين ما يزالون يذهبون إلى الكنيسة كل أحد؛ والمبشرين الإنجيليين الذين يستشهدون بالكتاب المقدس للترغيب والترهيب، والمعالجين بالأدعية الدينية ما يزالون ينتشرون في الولايات الجنوبية؛ والخوف من «الشيوعية الملحدة» ربما ساعد في تغذية المكارثية و«الرعب الأحمر»، لكن على الأغلب عُدَّتْ الممارسة الدينية التقليدية ـ والأصولية الدينية بالتأكيد ـ متناقضة مع الحداثة، وملاذا للفقراء والأميين من مشقات ومصاعب الحياة. حتى حملات بيلي غراهام الضخمة عدها الخبراء والعارفون والأكاديميون مفارقة تاريخية غريبة، أثرا بائدا من عصر سابق لا علاقة له بالعمل الجاد لإدارة الاقتصاد الحديث أو صياغة السياسة الخارجية.

بحلول الستينيات، استنتج العديد من زعماء التيار الغالب البروتستانتي والكاثوليكي أن عليهم التكيف مع العصر المتغير إذا أرادوا الإبقاء على المؤسسات الدينية في أمريكا، وذلك عبر مواءمة عقيدة الكنيسة مع العلم، والتوكيد على المبادئ المسيحية الاجتماعية التي تتناول القضايا المادية المتصلة بالظلم الاقتصادي والعنصرية والتفرقة بين الجنسين، والنزعة العسكرية الأمريكية.

ما الذي حدث؟ من ناحية، بالغ المراقبون دوما في الاعتقاد أن الحماس الديني يهدأ ويفتر. في هذا السياق على الأقل كان لانتقاد المحافظين لـ «النخبوية الليبرالية» أساس قوي من الصحة: استقر الأكاديميون والصحفيون ومروجو الثقافة الشعبية في أمان الجامعات والمراكز الحضرية الكبرى، وفشلوا في تقدير أهمية الدور المتواصل الذي لعبته أشكال التعبير الديني كافة في المجتمع في شتى أرجاء البلاد. وفي الحقيقة،

فإن إخفاق المؤسسات الثقافية المهيمنة في الاعتراف بالدافع الديني في أمريكا ساعد في تعزيز نوع من المشروع الديني المنظم ليس له نظير يضاهيه في أي مكان من العالم الصناعي. صحيح أنه محتجب عن النظر، إلا أنه مفعم بالحيوية والنشاط في قلب البلاد وفي «حزام الإنجيل»*، عالم مواز بازغ لا يتكون من الكهنة والقساوسة الإحيائيين والناشطين فقط، بل من محطات الإذاعة والتلفزيون والجامعات ودور النشر ووسائل الترفيه المسيحية، وكلها تتيح للمؤمنين تجاهل الثقافة الشعبية مثلما تتجاهلهم.

إحجام العديد من الإنجيليين عن دخول معترك السياسة ـ التركيز الداخلي على الخلاص الفردي والاستعداد لإعطاء قيصر ما لقيصر ـ كان سيستمر إلى ما لا نهاية لولا الاضطرابات الاجتماعية في الستينيات. ففي أذهان المسيحيين الجنوبيين، بدا قرار المحكمة الاتحادية البعيدة بإلغاء الفصل العنصري متسقا ومنسجما مع قراراتها بإلغاء الصلاة في المدارس ـ هجوما متعدد الشعب على ركائز الحياة الجنوبية التقليدية. وكانت الحركة النسائية، والثورة الجنسية، وتعاظم ثقة المثليين والشاذات جنسياً بالنفس، وقرار المحكمة العليا بمنح النساء الحق في الإجهاض في الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل، تحديا مباشرا لتعاليم الكنيسة فيما يتعلق بالزواج والجنسانية والدور الصحيح والمناسب للرجل والمرأة. ووجد المسيحيون المحافظون الذين شعروا أنهم عرضة للسخرية والهجوم أن من المتعذر عزل أنفسهم عن الاتجاهات والميول السياسية والثقافية العريضة في البلد. وعلى الرغم من أن جيمي كارتر كان أول من أدخل مفردات المسيحية الإنجيلية في قاموس السياسة الوطنية الحديثة، إلا أن الحزب الجمهوري، بتوكيده المتزايد على التراث التقليدي والنظام و«قيم العائلة»، كان في أفضل موقع لجني ثمار اليقظة الإنجيلية سياسيا وحشد الإنجيليين ضد التزمت الليبرالي.

من الضروري هنا تكرار القصة التي تصف كيف استطاع رونالد ريغان، وجيري فالويل، وبات روبرتسون، ورالف ريد، وأخيرا كارل روف وجورج بوش، حشد وتعبئة هذا الجيش من جنود المشاة المسيحيين. يكفي القول إن المسيحيين الإنجيليين

* منطقة ممتدة عبر الجنوب والغرب الأوسط من الولايات المتحدة حيث تهيمن الأصولية الدينية. (م)

البيض (إلى جانب الكاثوليك المحافظين) يمثلون قلب وروح القاعدة الشعبية للحزب الجمهوري ـ قاعدة أساسية من الأنصار والمؤيدين تحشدها باستمرار شبكة من المنابر ومنافذ وسائل الإعلام استطاعت التقانة تضخيمها. أما قضاياها ـ الإجهاض، زواج المثليين، الصلاة في المدارس، التصميم العاقل للكون، تيري شيافو، إيداع الوصايا العشر في المحاكم والمراكز الإدارية للمقاطعات، التدريس في المنزل، خطط القسائم التعليمية، تكوين المحكمة العليا ـــ فهي التي تهيمن على عناوين الأخبار وتمثل واحدا من أكبر خطوط التصدع في السياسة الأمريكية. وأوسع فجوة في الارتباط الحزبي لدى الأمريكيين البيض ليست بين الرجل والمرأة، أو الذين يقيمون في الولايات الحمراء والولايات الزرقاء، لكن بين الذين يذهبون إلى الكنيسة بانتظام والذين لا يدخلونها. في هذه الأثناء، يكافح الديمقراطيون بمشقة للتعامل مع الدين، حتى إن كانت الشريحة الأساسية للناخبين المؤيدين لهم تتمسك بالتوجه العلماني بعناد، وتخشى ـ وهي محقة دون شك ـ من أن أجندة الأمة المسيحية قد لا تفسح مكانا لها أو لخياراتها الحياتية.

لكن التأثير المتزايد لليمين المسيحي لا يمثل سوى جزء من القصة. فلربما استغلت «الأغلبية الأخلاقية» و«الائتلاف المسيحي» سخط واستياء العديد من المسيحيين الإنجيليين، لكن ما هو لافت وملحوظ أكثر قدرة المسيحية الإنجيلية لا على البقاء والاستمرارية فقط، بل على الازدهار والنماء في أمريكا الحديثة المتقدمة تقانيا. وفي وقت تخسر فيه الكنائس البروتستانتية الرئيسة أعضاءها بوتيرة متسارعة، تتوسع الكنائس الإنجيلية اللاطائفية وتكبر بسرعة، وتتمتع بمستويات من الولاء والمشاركة من أعضائها لا تضاهيها بها أي مؤسسة أمريكية أخرى. لقد أصبح الحماس الديني هو التيار الغالب.

هنالك تفسيرات متنوعة لهذا النجاح، تتراوح بين مهارة المبشرين الإنجيليين في ترويج وتسويق الدين وبين الشخصيات الكاريزمية الآسرة لزعمائهم. لكن نجاحهم يشير أيضا إلى طلب على المنتج الذي يبيعونه، جوع إليه يتجاوز إطار أي قضية معينة أو مسألة محددة. ففي كل يوم يبدو أن آلاف الأمريكيين الذين يمارسون حياتهم

العادية ــ يوصلون أبناءهم إلى المدارس، ويذهبون إلى وظائفهم، ويسافرون لحضور لقاءات العمل، ويتسوقون في مراكز التسوق، ويحاولون الحفاظ على نظامهم الغذائي ــ يتوصلون إلى قناعة مفادها أن شيئا ما ينقصهم. يشعرون ويقررون أن عملهم وانشغالهم وممتلكاتهم الدنيوية وتسلياتهم ليست كافية. يريدون إحساسا بوجود هدف، تغييرا مثيرا في حياتهم، شيئا يريحهم من العزلة المزمنة، ويزيل عنهم تعب وإرهاق وكد الحياة اليومية. يحتاجون إلى توكيد يطمئنهم إلى وجود من يرعاهم ويصغي إليهم هناك في السماء ـ وأن مصيرهم ليس العدم.

إن امتلكتُ أي رؤية ثاقبة لهذا التحرك نحو تعميق الالتزام الديني فربما يعود السبب إلى السبيل الذي اخترته.

لم أنشأ في أسرة متدينة. فمع أن جدي وجدتي لأمي اللذين قدما من كنساس عاشا طفولة متدينة: ترعرع جدي في كنف جدين مؤمنين من أتباع الكنيسة المعمدانية بعد أن هجره والده وانتحرت أمه، في حين كان والدا جدتي ـ اللذان احتلا مرتبة أعلى قليلا في تراتبية مجتمع البلدات الصغيرة في حقبة الكساد الكبير (عمل والدها في مصفاة للنفط وكانت والدتها مدرسة) ـ من أتباع الكنيسة الميثودية.

لكن ربما للأسباب ذاتها التي دفعتهما (جدي وجدتي) لمغادرة كنساس والهجرة إلى هاواي، لم يتجذر الدين في قلبيهما أبدا. فقد كانت جدتي عنيدة في عقلانيتها إلى حد رفض قبول كل ما لا تراه رأي العين، أو تلمسه أو تعده أو تحسبه. أما جدي، الرجل الحالم في أسرتنا، فقد امتلك روحا قلقة ربما وجدت ملاذا في الإيمان الديني لولا تلك السمات والصفات ـ تمرد جواني، عجز كامل عن ضبط الشهوات، تسامح عريض مع أخطاء وضعف الآخرين ـ التي منعته من أخذ أي شيء على محمل الجد.

التوليفة التي شملت هذه النزعات والميول ـ عقلانية جدتي الصوانية، ومرح جدي وعجزه عن الحكم الصارم على نفسه أو على الآخرين ـ انتقلت بالوراثة إلى أمي. فتجاربها كطفلة حساسة مولعة بالقراءة، ترعرعت في البلدات الصغيرة في كنساس وأوكلاهوما وتكساس، عززت هذه الشكوكية الارتيابية. وذكرياتها عن المسيحيين

الذين عرفتهم في صباها ليست محببة. فمن حين لآخر، كانت تتذكر الدعاة والوعاظ من مدعي الفضيلة والتقوى الذين يرفضون وينكرون ثلاثة أرباع البشر بوصفهم ملاحدة جاهلين قدر عليهم قضاء الآخرة كلها في جهنم وبئس المصير - والذين يصرون على أن السماوات والأرض خلقت في سبعة أيام، على الرغم من الأدلة الجيولوجية والفيزيائية الفلكية التي تدحض ذلك. تذكرت سيدات الكنيسة المحترمات اللاتي يسارعن إلى تجنب أولئك اللذين لا يستوفون معاييرهن عن السلوك اللائق، حتى حين يجهدن لإخفاء أسرارهن القذرة؛ وآباء الكنيسة الذين يجاهرون بالنعوت العنصرية ويخدعون عمالهم ويسلبونهم آخر فلس يملكونه.

برأي والدتي، كثيرا ما يتزيا انغلاق الدين المنظم بلبوس الصلاح والتقوى، وتتستر الوحشية والقمع بعباءة الفضيلة والاستقامة.

هذا لا يعني القول إنها لم تزودني بالتعاليم الدينية. ففي ذهنها، تعد المعرفة العملية بديانات العالم الكبرى جزءا ضروريا من أي تعليم متوازن ومتطور. في بيتنا، وضع الإنجيل والقرآن وأغنية الرب (أشهر نص هندوسي مقدس) على الرف إلى جانب كتب أساطير اليونان والاسكندنافيين والأفارقة. في عيد الفصح أو عيد الميلاد، كانت أمي تجرني إلى الكنيسة، مثلما تجرني إلى المعبد البوذي، والاحتفال بعيد رأس السنة الصينية، وضريح الشنتو، والمدافن الأثرية في هاواي. لكنني دُفعت لأفهم أن مثل هذه العينات الدينية لا تتطلب التزاما مستداما من جانبي — لا مشقة التأمل الباطني ولا تعب جلد الذات. الدين تعبير عن الثقافة الإنسانية، كما كانت تشرح، لا نبعها الوحيد، واحد من الطرق - وليس أفضلها بالضرورة - التي جربها الإنسان للسيطرة على المجهول وفهم الحقائق العميقة المتعلقة بحياتنا.

باختصار، رأت والدتي الدين من منظور الأنثروبولوجيا التي ستختص بها؛ ظاهرة يجب التعامل معها باحترام مناسب، لكن بتجرد مناسب أيضاً. فضلاً عن ذلك، نادراً ما اتصلتُ في طفولتي مع أولئك الذين يعرضون رأيا مختلفا اختلافا جوهريا للدين. غاب والدي غيابا كليا عن طفولتي، بعد أن طلق أمي حين لم أتجاوز السنتين من العمر؛ وعلى أي حال، مع أن والدي نشأ مسلماً، إلا أنه غدا ملحدا عندما

التقى والدتي، حين اعتقد أن الدين ليس سوى خرافة، مثل شعوذات الأطباء السحرة الذين شاهدهم في القرى الكينية في شبابه.

حين تزوجت والدتي مرة ثانية، كان زوجها إندونيسيا على القدر ذاته من الشك، رجلا يرى الدين مفيدا على نحو خاص من الناحية العملية ليشق المرء طريقه في الحياة. فقد نشأ في بلد والف بسهولة بين دينه الإسلامي وبقايا التقاليد التراثية الهندوسية والبوذية والأرواحية القديمة. وخلال السنوات الخمس التي عشناها مع زوج أمي في إندونيسيا، التحقت أولا بمدرسة كاثوليكية في الحي، ثم بمدرسة إسلامية؛ في الحالتين كلتيهما، كانت والدتي أقل اهتماما بتعليمي تعاليم الدين ومعنى أذان العشاء، من تعليمي جدول الضرب.

لكن على الرغم من علمانية والدتي المعلنة، إلا أنها كانت أكثر امرأة روحانية عرفتها. فقد امتلكت دافعا غريزيا لا يحيد للطيبة والخير والحب، وقضت معظم حياتها تتصرف وفقا لتلك الغريزة، حتى لو سببت الضرر لها. ودون مساعدة النصوص الدينية أو السلطات المرجعية الخارجية، عملت بقوة ودأب على غرس القيم التي يتعلمها العديد من الأطفال الأمريكيين في مدارس الأحد داخلي: الصدق والأمانة والتعاطف مع الآخرين والانضباط وتأخير الإشباع والجد والاجتهاد. كان يغضبها الفقر والظلم، وتزدري أولئك الذين لا يبالون بهما.

والأهم أنها امتلكت إحساسا راسخا بالتساؤل والدهشة، واحتراما للحياة وطبيعتها الثمينة والزائلة، بحيث يمكن وصفها بأنها مؤمنة. خلال اليوم، قد تشاهد لوحة فنية، أو تقرأ بيتا من الشعر، أو تسمع معزوفة موسيقية، فأرى الدموع تترقرق في عينيها. في بعض الأحيان، حين كبرت قليلا كانت توقظني في منتصف الليل لكي أحدق إلى القمر بمنظره الخلاب، أو تطلب مني أن أغلق عيني ونحن نسير معا في الغسق لنسمع حفيف الشجر. كانت تحب أن تأخذ أي طفل لتضعه في حضنها وتدغدغه أو تلعب معه أو تفحص يديه، لتتلمس معجزة تكوين عظامه وعضلاته وبشرته، وتبهجها الحقائق التي تجدها هناك. كانت ترى أسرارا غامضة في كل مكان وتستمتع بغرابة الحياة.

حين أسترجع الماضي بالطبع، أفهم مدى عمق التأثير الذي مارسته روحها في نفسي ـ كيف أعالتني ورعتني على الرغم من غياب الأب عن المنزل، وكيف أنقذتني من أخطار وصعوبات فترة المراهقة، وكيف أرشدتني، بأسلوب غير مرئي، إلى السبيل الذي اتخذته في نهاية المطاف. ربما ألهب والدي مطامحي الضارية ـ عبر معرفتي بإنجازاته وإخفاقاته، ورغبتي المكتومة بالفوز بحبه، واستيائي منه وغضبي عليه. لكن إيمان والدتي الجوهري، في طيبة وفضيلة الناس وفي القيمة النهائية لهذه الحياة العابرة التي منحت لكل منا، هو الذي وجه هذه الطموحات. البحث عن توكيد لقيمها هو الذي دفعني لدراسة الفلسفة السياسية، والسعي للعثور على لغة ومنظومات للعمل يمكن أن تساعد في بناء المجتمع وجعل العدالة حقيقة واقعية. والبحث عن تطبيق عملي لتلك القيم هو الباعث وراء قبولي العمل بعد التخرج في ميدان التنظيم الاجتماعي لمجموعة من الكنائس في شيكاغو كانت تحاول مغالبة البطالة والمخدرات واليأس.

سجلت في كتاب سابق الطرائق التي ساعدني عبرها عملي المبكر في شيكاغو على العبور إلى مرحلة الرجولة ـ كيف شد عملي مع رعاة الكنيسة والناس العاديين عزيمتي على دخول ميدان الحياة العامة، وكيف قوى هؤلاء هويتي العرقية وإيماني بقدرة الفرد العادي على أداء مهمات استثنائية. لكن تجاربي في شيكاغو أجبرتني أيضا على مواجهة معضلة لم تتمكن والدتي من إيجاد حل لها في حياتها: حقيقة عدم وجود مجتمع أو طائفة أو تقاليد مشتركة يمكن أن ترتكز عليها معتقداتي المتجذرة في كياني. المسيحيون الذين عملت معهم رأوا أنفسهم فيَّ؛ تأكد لهم أنني أعرف كتابهم وأقاسمهم قيمهم وأرتل أناشيدهم. لكنهم استشعروا أن جزءا مني ظل مراقبا بعيدا ومنفصلا عنهم. أدركت أنه في غياب قالب لمعتقداتي، والتزام واضح بطائفة دينية معينة، سأبقى منفصلا وحرا بالطريقة التي كانت عليها والدتي، لكن وحيدا كما غدت وحيدة في نهاية المطاف.

هنالك ما هو أسوأ من مثل هذه الحرية. عاشت والدتي سعيدة حين عَدَّت العالم وطنها، وجمعت حولها صديقات وأصدقاء على الدوام، وأشبعت حاجتها لوجود معنى من عملها وأولادها. في مثل هذه الحياة، كنت سأرضى أنا أيضا لولا بعض السمات

المعينة التي ميزت كنيسة السود تاريخيا، سمات ساعدتني على التخلي عن شكوكي واعتناق الديانة المسيحية.

لقد جذبتني قوة التراث الديني الأمريكي الأفريقي لتحفيز التغيير الاجتماعي. ونتيجة الضرورة، كان على كنيسة السود مساعدة الفرد برمته. ونادرا ما تمتعت بترف فصل الخلاص الفردي عن الخلاص الجمعي. وجب عليها أن تكون مركز المجتمع المحلي السياسي والاقتصادي والاجتماعي فضلاً عن الروحي؛ إذ فهمت بطريقة حميمية دعوة الإنجيل لإطعام الجائع وستر العريان وتحدي السلطات والقوى والإمارات. في تاريخ هذه الصراعات، تمكنت من رؤية الإيمان الديني بوصفه أكثر من مجرد مواساة الكليل والعاني أو توقي الموت؛ كان عاملا فاعلا وملموسا في العالم. في العمل اليومي للرجال والنساء الذين قابلتهم في الكنيسة، في قدرتهم على «صنع المستحيل»، والتشبث بالأمل والكرامة في أصعب الظروف، استطعت أن أرى «الكلمة»تتمظهر وتتبدى.

ولربما انطلاقا من هذه المعرفة الحميمة بالمشقة، وتأسيس الدين على الكفاح، قدمت لي كنيسة السود رؤية ثانية: الإيمان الديني لا يعني أن الشكوك بعيدة عنك، أو أن تتخلى عن تشبثك بهذه الدنيا. فالعظة النمطية في كنيسة السود، قبل وقت طويل من بثها على شاشات محطات التلفزيون الدينية والتبشيرية، تعترف صراحة بأن جميع المسيحيين (ومنهم رعاة الكنيسة) لديهم القدر المتوقع ذاته من الطمع والاستياء والشهوة والغضب الذي يختبره الكل. فالأغنيات الإنجيلية وحركات الجسم والدموع والصراخ تشير جميعا إلى الانطلاق والتحرر والاعتراف بهذه العواطف والمشاعر وأخيرا توجيهها. في مجتمع السود، تبهت الخطوط الفاصلة بين الخاطئ ومن حظي بالخلاص؛ فخطايا الذين حضروا إلى الكنيسة لا تختلف كثيرا عن خطايا الذين غابوا، ومن ثم يمكن الحديث عنها بروح الدعابة والإدانة في آن. أنت بحاجة للذهاب إلى الكنيسة لأنك جزء من هذا العالم، ولست منفصلا عنه؛ والفقراء والأغنياء والمذنبون والأنقياء والأتقياء، بحاجة إلى الإيمان بالمسيح لأنهم ارتكبوا ذنوبا يجب غسلها ـ لأنهم بشر وبحاجة إلى حليف في رحلتهم الصعبة، يسهل عليهم وعورة الطريق ويجعل السبل كلها مستقيمة.

بسبب هذا الفهم المكتشف حديثا ـ الالتزام الديني لا يتطلب مني وقف تفكيري النقدي، وفك الارتباط عن النضال في سبيل العدالة الاقتصادية والاجتماعية، أو التراجع والانسحاب من العالم الذي عرفته وأحببته ـ تمكنت أخيرا من دخول كنيسة الثالوث الأقدس المتحدة في أحد الأيام لأتعمد. كان ذلك خيارا لا كشفا؛ فالأسئلة داخلي لم تختف بشكل سحري. خضعت لإرادة الرب وكرست نفسي لاكتشاف حقيقته.

مناقشة الدين والإيمان نادرا ما تكون سمجة أو خرقاء داخل مجلس الشيوخ. إذ لا يسأل أحد عن ارتباطه الديني؛ ونادرا ما سمعت اسم الرب يستحضر خلال النقاش في القاعة. وقس المجلس رجل حكيم ودنيوي، عمل سابقا رئيسا لقساوسة البحرية، وهو أمريكي أفريقي نشأ في واحد من أعنف أحياء بلتيمور ويؤدي واجباته المحدودة ـ صلاة الصبح، وجلسات دراسة الإنجيل الطوعية، والمشورة الروحية لمن يريدها ـ بروح ودودة وشمولية لا تستثني أو تقصي أحدا. صلاة صباح الأربعاء (مع الفطور) طوعية كليا، يشارك فيها أعضاء الحزبين، ومسكونية (تشمل أتباع جميع الكنائس) (مسؤول الحزب الجمهوري عن إقامتها هو العضو اليهودي نورم كولمان)؛ وأولئك الذين يختارون، طوعا، الحضور ينتقون فقرات من الكتاب المقدس ويناقشونها جماعيا. ولا ريب أن سماع ما يميز حديث حتى أكثر الأعضاء تدينا، مثل ريك سانتوروم أو سام براونباك أو توم كوبورن، من صدق وانفتاح وتواضع ودعابة، حين يتقاسمون مع البقية رحلاتهم الإيمانية الشخصية خلال هذه الجلسات، يغري المرء بالافتراض إن الدين يمارس في السياسة تأثيرا مفيدا وصحيا، ويكبح جماح المطامح الشخصية، ويقي من الرياح العاصفة لعناوين الأخبار والذرائع التبريرية والأنانية السياسية السائدة اليوم.

لكن خارج تخوم الرقة واللطف والتهذيب المحددة للمجلس، يمكن أن ينحدر أي نقاش حول الدين ودوره في السياسة إلى درجة أقل من اللطف والكياسة. خذ على سبيل المثال خصمي الجمهوري السفير السابق الان كيز في انتخابات عام 2004، الذي استخدم حجة جديدة لاجتذاب الناخبين في الأيام الأخيرة من الحملة.

أعلن السيد كيز: «المسيح ما كان ليصوت لمصلحة باراك أوباما لأنه قرر التصرف بطريقة لا يتخيل أحد أن المسيح سيتبعها»

لم تكن تلك المرة الأولى التي يدلي فيها السيد كيز بمثل هذه البيانات والتصريحات. فبعد أن أجبر خصمي الجمهوري الأساسي على الانسحاب في أعقاب افتضاح ملف طلاقه، قرر الحزب الجمهوري في الينوي، بعد أن عجز عن اختيار مرشح محلي آخر، تجنيد السيد كيز لأداء المهمة. وحقيقة أن كيز أتى من مريلاند، ولم يعش أبدا في الينوي، ولم يفز أبدا بانتخابات، وعَدَّه الكثيرون في الحزب الجمهوري مغرورا ومتغطرسا، لم تردع قيادة الحزب الجمهوري في الينوي. أحد زملائي الجمهوريين في مجلس شيوخ الولاية قدم لي تفسيرا واضحا وصريحا لإستراتيجيتهم: «لدينا رجل محافظ أسود تخرج في هارفارد يقف ضد رجل ليبرالي أسود تخرج في هارفارد. ربما لن ينجح، لكن يستطيع على الأقل نزع تلك الهالة عن رأسك»

لم يكن السيد كيز يفتقر إلى الثقة بالنفس. فهو حاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة هارفارد، وترعاه جين كيركباترك، سفيرة الولايات المتحدة في المجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع للأمم المتحدة (في عهد ريغان)، وحاز شهرة كبيرة لدى عامة الناس حين ترشح مرتين لمجلس الشيوخ عن مقعد ولاية مريلاند، وخاض السباق مرتين للفوز بترشيح الحزب الجمهوري لرئاسة الولايات المتحدة. صحيح أنه هزم في السباقات الأربعة كلها، لكن هذه الهزائم لم تفعل شيئا لتقليص شهرته لدى مؤيديه وأنصاره؛ فبرأيهم بدا الإخفاق الانتخابي إثباتا يؤكد ولاءه الثابت والعنيد لمبادئ المحافظين.

لا شك في أن الرجل خطيب مفوه. إذ يستطيع أن يرتجل فورا خطبة عصماء خالية من الأخطاء النحوية عن أي موضوع. ويقدر خلالها أن يرفع مستوى حدتها وكلماتها النارية، فيهتز جسمه، ويتصبب العرق من حاجبيه، وتطعن أصابعه الهواء، ويعلو صوته الصداح ويرتجف من شدة التأثر وهو يدعو المؤمنين إلى محاربة قوى الشر.

لكـن لسوء حظه، لم يتمكن لا ذكاؤه ولا بلاغته الخطابية من مغالبة بعض العيوب والنواقص التي يعانيها كمرشح. فخلافا لمعظم السياسيين مثلا، لم يبذل السيد كيز أي جهـد لإخفاء ما أعلنه بكل وضوح من تفوق أخلاقـي وفكري. فمع وقفته المنتصبة وأسلوبـه المسرحي الرسمي، ونظرته المحدقة وجفنيه السميكين، بدا مضجرا ومملا. وجمعت شخصيته صفات واعـظ الكنيسة العنصرانية (التي تشدد على أهمية حلول الروح القدس) ووليام بوكلي.

إضافـة إلى ذلك، أعاقت تلك الثقة المفرطة بالنفس غرائز الرقابة الذاتية لديه التي أتاحت لمعظم الناس شق طريقهم في الحياة دون الدخول في مشاجرات مستمرة وتبـادل اللكمات. اعتاد السيد كيز قول كل مـا يخطر بباله، واستخدام المنطق العنيد لمتابعـة أي فكرة تأتيه حتى النهايـة. وبسبب الظروف غير المواتية الناجمة عن تأخره في بـدء الحملة، والافتقار إلى التمويل الكافي، ووضعه كسياسي غريب يترشح في غير منطقتـه، أزعـج وأغضب خـلال ثلاثة أشهر فقـط الجميع. فقد دعـا المثليين كلهم، ومنهـم ابنة ديك تشيني، «الأنانيين المنغمسـين في الملذات»، وألح على أن تبني زوجين من المثليين طفلا سيؤدي إلى سفاح الأقارب حتما. واتهم الصحفيين في الينوي بأنهم أداة «لأجنـدة معارضـة الزواج ومناهضـة الحياة» ثم اتهمني باتخـاذ «موقف مالك العبيـد» في دفاعـي عن حقوق الإجهاض، ودعاني بـ «الأكاديمـي الماركسي المتصلب» بسبـب تأييدي للرعاية الصحية الشاملة وغيرها مـن البرامج الاجتماعية ـ وأضاف بأنني لست أمريكيا أفريقيا لأنني لست متحدرا من نسل العبيد. بل استعدى في إحدى المراحـل الجمهوريين المحافظين الذين رشحوه أصلا لمقعد الينوي حين أوصـى ـ سعيا وراء أصـوات السود ربما ـ بتعويضات علـى شكل إلغاء تام لضريبة الدخل على جميع السـود المتحدرين من العبيد (علق موقع اليمين المتشـدد في الينوي على الويب قائلاً: «هذه كارثة!» وأضاف «ماذا عن البيض؟!»).

بكلمـات أخـرى، كان الان كيز خصمـا مثاليا؛ وكل ما كان علي فعلـه هو السكوت والبـدء بالتخطيط لمراسم أداء القسم بعد فوزي الأكيـد. ومع ذلك، ومع تقدم مسار الحملـة الانتخابية، وجدت أنه يشغل تفكيري ويزعجني إلى حد لم أعهده قبلا. وحين

كنـا نلتقي خلال الحملة، كثيرا ما كنت أكبح دافعا يستحثني على الهزء به وتعييره أو كسر رقبته. في إحدى المرات، عندما تقابلنا صدفة في موكب عيد الاستقلال الهندي، نكزتـه في صـدره وأنا أناقشه، وكان مسلكا ذكوريا عدائيـا لم أتبعه منذ أيام المدرسة الثانويـة، لكـن كاميرات وسائل الإعـلام التقطته؛ وأعادت عرضـه بالحركة البطيئة علـى شاشة التلفزيون في تلـك الأمسية. وفي المناظرات الثلاث التـي جرت بيننا قبل الانتخابات، كنت معقود اللسان، وحاد الطبع، ومتوترا على غير العادة ـ حقيقة فاتت علـى عامـة الناس غالبا (نظرا لأن مصـيره حسم عند هذه المرحلـة)، لكنها سببت قـدرا غـير قليل من الغم والكرب لبعض أنصاري. وكانوا يسألونـني: «لماذا تدع هذا الرجـل يصدمـك ويثير غضبـك؟» فبرأيهم كان السيـد كيز معتوهـا، ومتطرفا، ولا تستحق حججه حتى التفكير فيها.

مـا لم يفهموه هو أنني كنـت مضطرا لأخذ السيد كيز على محمل الجد. فقد زعم التحـدث باسم ديني ـ ومـع أنني لم أكن أحب ما يقوله، لكن وجب علي الاعتراف بأن لبعض آرائه الكثير من المؤيدين داخل الكنيسة المسيحية.

كانـت حجته تسير على النحو التالي: أسست أمريـكا على مبدأين توأمين وهبهما الله همـا الحرية والمسيحية. أمـا الإدارات الليبرالية المتعاقبة فقد اختطفت الحكومة الاتحاديـة وأجبرتهـا على خدمـة المادية الملحـدة ومن ثـم اقتطعت ـ عـبر القواعد التنظيميـة، وبرامج الرعايـة الاجتماعيـة الاشتراكية، وقوانـين الأسلحة، والحضور الإلزامـي في المدارس العامة، وضريبـة الدخل («ضريبة العبيد» كمـا سماها السيد كيز) ـ أجزاء كبيرة من الحرية الفردية والقيم التقليدية. وساهم القضاة الليبراليون في هـذا الانحطاط الأخلاقي عبر تشويه وتحريف التعديل الأول ليعني فصل الكنيسة عـن الدولـة، والموافقـة على جميع أنمـاط السلوك المنحـرف ـ خصوصـا الإجهاض والمثليـة ـ التي تهدد بتدمير العائلة النووية. إذن، كان الجواب على التجديد الإحيائي في أمريـكا بسيطا: يجب إعـادة الدين عموما، والمسيحية علـى وجه الخصوص، إلى مكانـه الطبيعـي في مركز الحياة العامة والخاصة، ورصـف وتدعيم القانون بالمبادئ والأركان الدينية، وتقييد سلطة الحكومة الاتحادية إلى حد بعيد فيما يتعلق بالتشريع في المجالات الموصوفة إما في الدستور أو في الوصايا الإلهية.

بكلمات أخرى، قدم الان كيز رؤية جوهرية لليمين الديني في هذا البلد، مجردة من جميع المحاذير أو التنازلات أو التسويفات أو الاعتذارات. رؤية كانت ضمن شروطها الخاصة متسقة ومترابطة كليا، وزودت السيد كيز بيقين وطلاقة أنبياء العهد القديم. وفي حين وجدتها بسيطة إلى حد يكفي لدحض حججه الدستورية والسياسية، إلا أن قراءته للإنجيل أجبرتني على اتخاذ موقف الدفاع.

كان السيد كيز يقول: يدعي السيد أوباما إنه مسيحي لكنه يؤيد أسلوب حياة يدعوه الإنجيل منكرا.

يقول السيد أوباما إنه مسيحي لكنه يؤيد تدمير الحياة البريئة والمقدسة.

ماذا كان بمقدوري أن أرد؟ القراءة الحرفية المتزمتة للكتاب المقدس حماقة خرقاء؟ وعلى السيد كيز، الكاثوليكي، تجاهل تعاليم البابا؟ عندما رغبت عن الخوض في هذا المجال، قدمت الجواب الليبرالي المعتاد في مثل هذه المجادلات ـ نحن نعيش في مجتمع تعددي، ولا أستطيع فرض آرائي الدينية على الآخر، وأنني أرشح نفسي لمقعد مجلس الشيوخ عن ولاية الينوي لا لمنصب قسيس الينوي.

لكن حتى في هذه الحالة، لم يغب عن ذهني اتهام كيز الضمني ـ رجل تملؤني الشكوك، وإيماني الديني فاسد ومغشوش، ولست مسيحيا تقيا وحقيقيا.

* * *

بمعنى من المعاني، عبرت معضلتي مع السيد كيز عن مشكل محير أوسع تواجهه الليبرالية عند الرد على اليمين الديني. فقد علمتنا التسامح مع معتقدات الناس الدينية، طالما لا تسبب ضررا أو تتعدى على حق الآخر في اختلاف الدين. لكن هذا التسامح لم يختبر فيما يتعلق بمدى الرضى الذي تبلغه الطوائف والمجتمعات الدينية في تجنب الاتصال مع المجتمعات الأخرى وحصر الدين في إطار الضمير الفردي.

لكن نادرا ما مورس الدين في عزلة؛ فالدين المنظم، على الأقل، شأن عام. وقد يشعر المؤمنون بأن دينهم يفرض عليهم التبشير به ونشره بقدر ما يستطيعون. وأن الدولة العلمانية تروج قيماً تنتهك معتقداتهم انتهاكاً مباشراً. وربما يريدون من المجتمع الأوسع تصديق آرائهم وفرضها.

وحين يملك الذين يحركهم الدافع الديني الثقة الكافية بالنفس لتحقيق هذه الأهداف على المستوى السياسي، يضطرب الليبراليون وتتوتر أعصابهم. قد يحاول المسؤولون الذين يشغلون مناصب عامة تجنب الحديث عن القيم الدينية برمتها، خوفا من الإساءة إلى الآخرين وجرح مشاعرهم، ويزعمون أن المبدأ الدستوري ـ بغض النظر عن معتقداتنا الشخصية ـ يقيد يدينا فيما يتعلق بقضايا متنوعة: من الإجهاض حتى الصلاة في المدارس (يبدو أن السياسيين الكاثوليك من جيل معين يلتزمون جانب الحذر على نحو خاص، ربما لأنهم أتوا من عصر تساءلت فيه شرائح واسعة من الأمريكيين هل سيتلقى جون كنيدي الأوامر من البابا في نهاية المطاف). بعض أهل اليسار (من غير المسؤولين) يمضون خطوة أبعد، حيث ينكرون الدين علنا بوصفه لا عقلانيا ولا متسامحا، ولذلك فهو خطر - ويلاحظون أن الخطاب الديني، بتشديده على الخلاص الفردي ومراقبة الأخلاق في المجال الخاص، قد زود المحافظين بالغطاء اللازم لتجاهل مسائل الأخلاق العامة، مثل الفقر أو مخالفة القانون من قبل الشركات.

قد تنجح مثل هذه الإستراتيجيات بالنسبة للتقدميين حين يكون الخصم الان كيز. لكن على المدى الطويل، أعتقد أننا نرتكب خطأ حين نخفق في الاعتراف بقوة تأثير الدين في حياة الشعب الأمريكي، ومن ثم نتفادى الحوار الجاد حول كيفية مصالحة الدين مع ديمقراطيتنا التعددية الحديثة.

بادئ ذي بدء، تلك سياسة سيئة. فهنالك شرائح واسعة من المتدينين في أمريكا، تشمل أغلبية من الديمقراطيين. وحين نتخلى عن ميدان الحوار الديني ـ ونتجاهل الجدل حول معنى أن تكون مسيحيا أو مسلما أو يهوديا صالحا طيبا؛ وحين نناقش الدين من منظور أين يجب عدم ممارسته أو كيف، أي بالمعنى السلبي، بدلا من المعنى الإيجابي المتمثل في التزاماتنا تجاه بعضنا بعضا حسب تعاليمه؛ وحين نبتعد عن الاجتماعات الدينية والبرامج الدينية على افتراض أننا لن نلقى الترحيب ـ فإن غيرنا سوف يملأ الفراغ. وأولئك الذين يفعلون ذلك يرجح أن يكونوا من المؤمنين بأكثر الآراء انعزالا وضيقا في الأفق عن الدين، أو يستخدموا الدين وسيلة لتبرير الغايات الحزبية الضيقة.

والأهم أن انزعاج بعض التقدميين من أي إشارة تلميحية إلى التدين أعاقنا غالبا عن التصدي بفاعلية للقضايا المطروحة بتعابير أخلاقية. بعض المشكلات بلاغية خطابية: حين نشطب لغة الرضى الديني نخسر الصور التخييلية واللغة الاصطلاحية التي يفهم بواسطتها ملايين الأمريكيين مبادئهم الأخلاقية الشخصية والعدالة الاجتماعية. لنتصور مثلا خطاب القسم الثاني الذي ألقاه لينكولن دون إشارة إلى «أحكام الرب» أو خطبة مارتن لوثر كينغ «لدي حلم» دون إشارة إلى «جميع عيال الله» فاستحضار هؤلاء للحقيقة السامية ساعد في إلهام ما بدا مستحيلاً ودفع الأمة لاعتناق فكرة المصير المشترك. وبالطبع، لا يحتكر الدين المنظم الفضيلة، ولا يحتاج المرء إلى أن يكون متدينا لإطلاق دعاوى أخلاقية أو مناشدة الصالح العام. لكن يجب ألا نتجنب إطلاق مثل هذه الدعاوى والمناشدات ـ أو نتخلى عن أي إشارة إلى تقاليدنا الدينية الثرة ـ في سبيل تفادي الإساءة للآخرين.

لكن فشلنا كتقدميين في الاستفادة من الركائز الأخلاقية للأمة لا ينحصر في إطار الخطاب البلاغي. فخشيتنا من التحول إلى «وعاظ» قد تدفعنا إلى التقليل من شأن الدور الذي تؤديه القيم والثقافة في التصدي لبعض من أكثر مشكلاتنا الاجتماعية إلحاحا وأهمية.

على الرغم من كل شيء، ليست مشكلات الفقر والعنصرية، والعاطلين من العمل والمحرومين من الضمان والرعاية، مجرد مشكلات تقنية بحاجة إلى خطة مثالية من عشر نقاط. لكنها متجذرة في صميم اللامبالاة المجتمعية وعدم تعاطف الأفراد ـ الرغبة لدى أولئك المتربعين على قمة السلم الاجتماعي في الحفاظ على ثرائهم ومكانتهم مهما كان الثمن، إضافة إلى اليأس والدمار الذاتي لدى أولئك الرابضين في قاعه.

سوف يتطلب حل هذه المشكلات تغييرات في السياسة الحكومية؛ وسيتطلب أيضا تغيرا في المواقف والأذهان. أؤمن بضرورة إبعاد السلاح عن أحياء المدن الداخلية، وأعتقد أن على زعمائنا الوقوف في وجه جماعة الضغط المؤيدة لمصنعي الأسلحة. لكنني أعتقد أيضا أننا نعاني من مشكلة أخلاقية، حين يطلق أحد أفراد عصابات

الشوارع النار بطريقة عشوائية على حشد من الناس لأنه شعر بأن أحدهم لم يعامله باحترام. نحن لسنا بحاجة إلى معاقبة ذلك الرجل على جريمته فقط، بل علينا الاعتراف بأن لديه مشكلة يعانيها، وأن البرامج الحكومية وحدها قد لا تتمكن من إصلاحه. أؤمن بالتطبيق الصارم لقوانيننا التي لا تميز بين المواطنين؛ وأن صحوة الضمير والالتزام الحقيقي بالتنوع من كبار المسؤولين والمديرين يمكن أن يعطي نتائج سريعة لن تعطيها كتيبة من المحامين. أعتقد أن علينا توظيف مزيد من ضرائبنا الدولارية في تثقيف وتعليم البنات والصبيان الفقراء، وتزويدهم بالمعلومات المتعلقة بمنع الحمل من أجل منع حالات الحمل غير المرغوب فيها، وتخفيض معدلات الإجهاض، والمساعدة في ضمان رعاية كل طفل. لكنني أعتقد أيضا أن بمقدور الدين تدعيم وتقوية إحساس الفتاة بالذات، وإحساس الشاب بالمسؤولية، واحترام جميع الشبان والشابات للعلاقة الجنسية الحميمة.

أنا لا اقترح أن على كل تقدمي أن يقبض فورا على اللغة الاصطلاحية الدينية أو أن نتخلى عن النضال في سبيل إحداث تغيير مؤسسي لصالح «آلاف النقاط المضيئة» فأنا أدرك كم تحولت مناشدة الفضيلة إلى أعذار تبريرية للعطالة والامتناع عن الفعل. فضلا عن ذلك، لا شيء أكثر وضوحا من التعابير الدينية المزيفة والكاذبة ـ مثل السياسي الذي يزور كنيسة السود قرب موعد الانتخابات ويصفق (دون معرفة الإيقاع) مع جوقة المنشدين أو يورد بعض الشواهد من الإنجيل لإضافة بعض الإثارة إلى خطبته السياسية المملة.

فإذا تخلينا نحن التقدميون عن بعض من أحكامنا المتحيزة، نستطيع أن ندرك ونميز القيم التي يتقاسمها المتدينون والعلمانيون فيما يتعلق بالتوجه الأخلاقي والمادي لبلادنا. وندرك أيضا أن الدعوة إلى التضحية في سبيل الجيل التالي، والحاجة إلى التفكير بلغة «أنت» لا مجرد «أنا»، تتردد أصداؤهما في الصلوات في مختلف كنائس البلاد. نحن بحاجة إلى أخذ الدين على محمل الجد وعدم الاكتفاء بمناهضة اليمين الديني، بل إشراك جميع المتدينين في المشروع الأكبر لتجديد وبعث أمريكا.

هنالك خطوات اتخذت في هذا الاتجاه. فرعاة الكنائس الكبرى، مثل ريك وارن وتي. دي. جيكز، يرصون الصفوف ويمارسون نفوذهم الهائل لمحاربة الإيدز، وتخفيف عبء الديون عن بلدان العالم الثالث، ووقف عمليات الإبادة العرقية في دارفور. أما «الإنجيليون التقدميون»، كما يسمون أنفسهم، مثل جيم واليس وتوني كامبولو، فيستخدمون تعاليم الإنجيل التي تحض على مساعدة الفقراء كوسيلة لحشد المسيحيين ضد تخفيضات ميزانية البرامج الاجتماعية وتفاقم الظلم وغياب المساواة. وترعى الكنائس الفردية المنتشرة في شتى أرجاء البلاد، مثل الكنيسة التي أنتمي إليها، برامج الرعاية النهارية، وبناء المراكز للمسنين، ومساعدة المذنبين السابقين على استعادة حياتهم الطبيعية.

لكن التأسيس على هذه الشراكات المؤقتة وغير المستقرة بين العالمين الديني والدنيوي/ العلماني، يحتاج إلى إنجاز مزيد من العمل. إذ يجب التصدي مباشرة للتوترات والشكوك المتأصلة لدى كل جانب من الجانبين، وسيحتاج كل منهما إلى قبول بعض القواعد الأساسية للتعاون.

أولى الخطوات وأصعبها على المسيحيين الإنجيليين هي الاعتراف بالدور الحاسم الذي لعبه البند التأسيسي في الدستور لا في تطوير ديمقراطيتنا فقط، بل في تنشيط وتعزيز ممارستنا الدينية. فخلافاً لمزاعم العديد من المنتمين إلى اليمين الديني، الذين يهاجمون وينتقدون فصل الكنيسة عن الدولة، فإن خلافهم ليس مع حفنة من القضاة الليبراليين في الستينيات. بل مع الذين صاغوا مسودات إعلان حقوق المواطنين وأسلاف أتباع الكنيسة الإنجيلية.

معظم الرواد من قادة الثورة الأمريكية، خصوصاً فرانكلين وجيفرسون، كانوا من المؤمنين بمذهب التأليه الطبيعي، الذين لم يكتفوا بوضع عقائد الكنيسة المسيحية موضع الشك والمساءلة ـ رغم إيمانهم بالله ـ بل الأركان المركزية للديانة المسيحية ذاتها أيضاً (ومنها ألوهة المسيح). وقدم جيفرسون وماديسون خصوصاً الحجة لصالح ما دعاه جيفرسون «حائط الفصل» بين الكنيسة والدولة، كوسيلة لحماية

الحرية الفردية في الاعتقاد والممارسة الدينيين، ووقاية الدولة من النزاعات الطائفية، والدفاع عن الدين المنظم أمام تعدي الدولة أو نفوذها المفرط.

وبالطبع، لم يوافق جميع الآباء المؤسسين؛ فقد قدم باتريك هنري وجون أدامز مثلا تشكيلة متنوعة من الاقتراحات لاستخدام ذراع الدولة لترويج وتشجيع الدين. لكن في حين كان جيفرسون وماديسون هما من اقترحا قانون فيرجينيا التشريعي للحرية الدينية الذي سيصبح نموذجا للتعديل الأول على البنود الدينية، إلا أن أتباع عصر الأنوار هم الذين أثبتوا أنهم المدافعون النافذون عن فصل الكنيسة عن الدولة.

بل إن المعمدانيين، من أمثال القس جون ليلاند وغيره من الإنجيليين، هم الذين وفروا التأييد الشعبي المطلوب لتصديق هذه البنود. فعلوا ذلك لأنهم كانوا لا منتمين؛ لأن أسلوبهم العبادي الحيوي اجتذب الطبقات الدنيا؛ لأنهم دعوا إلى المسيحية جميع القادمين، ومنهم العبيد، الذين هددوا النظام القائم؛ لأنهم لم يحترموا الرتبة والمزايا؛ لأنهم تعرضوا باستمرار لاضطهاد وازدراء الكنيسة الإنجيلية المهيمنة في الجنوب والطرق الرهبانية الأبرشية السائدة في الشمال. ولم يخشوا من أن أي دين ترعاه الدولة قد يضعف قدرتهم، كأقليات دينية، على ممارسة دينهم فقط؛ بل اعتقدوا أيضا أن الحيوية الدينية لا بد أن تذوي وتنحسر حين تفرضها أو ترعاها الدولة. وحسب تعبير القس ليلاند: «الخطأ وحده يحتاج إلى الحكومة لتدعمه؛ أما الصواب فيظل أفضل حالا بدون دعمها»

نجحت صيغة جيفرسون وليلاند للحرية الدينية. ولم تتمكن أمريكا من تجنب أنواع النزاعات الدينية التي مازالت آفتها تجتاح العالم فقط، بل استمرت المؤسسات الدينية في الازدهار - وهي ظاهرة يعزوها بعض المراقبين بصورة مباشرة إلى غياب الكنيسة التي ترعاها الدولة، ومن ثم فهي مكافأة على التجريب والتطوعية الدينية. فضلاً عن ذلك، ونظرا لازدياد تنوع سكان أمريكا، لم تبلغ أخطار الطائفية مثل هذه الدرجة المرتفعة من قبل. وبغض النظر عما كنا عليه، لم نعد أمة مسيحية؛ نحن أمة يهودية ومسلمة وبوذية وهندوسية وملحدة.

لكن دعونا نفترض أننا مسيحيون وحسب. فأي نسخة من المسيحية نعلم التلاميذ في مدارسنا؟ نسخة جيمس دوبسون أم آل شابرون؟ وأي فقرات وآيات من الكتاب المقدس تستهدي بها سياستنا الخارجية؟ هل نعتمد سفر اللاويين الذي يبيح الرق ويحرم أكل المحار؟ وماذا عن سفر التثنية الذي يأمرك برجم طفلك إذا ضل عن صوابية الدين؟ أم هل نتشبث بالخطبة التي ألقاها المسيح أمام أتباعه وغيرهم ـ وهي فقرة راديكالية إلى حد أن وزارة الدفاع ذاتها لن تستطيع تطبيقها دون أن تنهار؟

يوصلنا ذلك كله إلى نقطة مختلفة ـ الأسلوب الذي يجب أن ترشد عبره آراؤنا الدينية الحوار العام وتهدي المسؤولين المنتخبين. من المؤكد أن العلمانيين يخطؤون حين يطلبون من المتدينين ترك دينهم أمام الباب قبل الدخول إلى المجال العام؛ إذ لم يكتف الدين بحث وتحفيز فريدريك دوغلاس وابراهام لينكولن ووليام جيننغز بريان ودوروثي داي ومارتن لوثر كينغ ـ بل أغلبية الشخصيات الفاعلة العظيمة في التاريخ الأمريكي ـ فقط ولكن هؤلاء استخدموا مرارا وتكرارا اللغة الدينية لتقديم الحجة الدامغة على قضاياهم أيضا. ومن العبث عمليا القول إن على الرجال والنساء عدم حقن «مبادئهم الأخلاقية الشخصية» في الحوارات والمجادلات السياسية العمومية؛ وقانوننا هو بالتعريف تقنين للمبادئ الأخلاقية، ومعظمه مؤسس على التراث اليهودي المسيحي.

ما تتطلبه ديمقراطيتنا التداولية/ التشاورية التعددية أن يترجم المدفوعون بباعث الدين اهتماماتهم ومشاغلهم إلى قيم شمولية غير محصورة في إطار الدين. تتطلب أن تكون اقتراحاتهم خاضعة للحجة والحوار ومذعنة للعقل والمنطق. فإذا عارضتُ الإجهاض لأسباب دينية وسعيت لإصدار قانون يحظر الممارسة، لا يمكنني الإشارة إلى تعاليم الكنيسة أو استحضار إرادة الله وتوقع أن تقنع تلك الحجة الآخرين وتدفعهم إلى تأييدي. لكن إذا أردت منهم الإصغاء إلي فعلي أن أفسر لماذا ينتهك الإجهاض مبدأ يعتنقه أتباع جميع الديانات، ومنهم أولئك الذين لا يؤمنون بأي دين.

وفيما يتعلق بأولئك الذين يؤمنون بعصمة الكتاب المقدس، مثل الكثير من الإنجيليين، قد تبدو قواعد الاشتباك هذه مجرد مثال آخر على طغيان العالمين

العلمـاني والمادي على المقدس والروحي. لكن في الديمقراطية التعددية ليس لدينا أي خيار. فالدين والعقل، بالتعريف تقريبا، يشتغلان في مجالين مختلفين ويشملان سبلا متباينة نحو تبيين وتمييز الحقيقة. العقل، والعلم، يشملان المعارف المتراكمة اعتمادا على الوقائع الحقيقية التي يمكن لنا جميعا فهمها وإدراكها. أما الدين فيعتمد، خلافا لذلك، على الحقائق غير القابلة للإثبات عبر الفهم البشري العادي ـ «الإيمان بالغيب» وحين يصر مدرسو العلوم على تجاهل نظرية الخلق واستبعاد التصميم العاقل للكون، فهـم لا يؤكـدون أن المعرفة العلمية متفوقة على الرؤيـة الدينية. بل يلحون على أن كل سبيل للمعرفة يشمل قواعد مختلفة وأن هذه القواعد ليست قابلة للتبادل.

يصعـب اعتبـار السياسـة علمـا، فهـي لا تعتمـد كثيرا علـى العقـل والمنطق. في الديمقراطيـة التعدديـة، تنطبـق التمايزات ذاتهـا. إذ ترتكز السياسـة، مثل العلم، علـى قدرتنا علـى حث وإقناع بعضنا بعضـا بالأهداف المشتركة اعتمـادا على الواقع المشترك. فضلا عن أن السياسة (خلافا للعلم) تشمل التسويات والتنازلات، فهي فن الممكن. وعلى مستوى من المستويات الجوهرية، لا يسمح الدين بالتنازلات والتسويات. بـل يصر بإلحاح على المستحيل. فإذا أمر الله، يجب على الأتباع الارتقاء إلى مستوى أمـره، بغض النظـر عن النتائج. وتأسيس حياة الفرد علـى مثل هذه الالتزامات التي لا تقبـل التسويات قد يكون أمرا ساميا وعظيما؛ لكن رسم سياستنا استنادا إلى هذه الالتزامات سيكون أمرا محفوفا بالخطر.

قصـة إبراهيم واسحق تقدم مثالا بسيطا لكن معـبرا. فوفقا للكتاب المقدس، أمـر الله إبراهيم بتقديم ابنـه الحبيب الوحيد اسحق قربانا. أطاع إبراهيم الأمر الربـاني دون تـردد، فأخـذ ابنه إلى قمة الجبـل ووضعه على المذبـح ورفع سكينه واستعد لتنفيذ الأمر.

نعـرف بالطبع الخاتمـة السعيدة ـ أرسل الله ملكا للتدخـل في آخر لحظة. ونجح إبراهيـم في اختبـار الـولاء والإخلاص. وأصبح نموذجـا لطاعـة الله، وكوفئ على إيمانـه الراسخ عبر أجيـال المستقبل. ومع ذلك، فإن من الإنصـاف القول لو رأى أي منـا إبراهيم في القرن الحـادي والعشرين يرفع سكينه على طفلـه فوق سطح منزله

لاستدعى الشرطة على الفور؛ ولسوف ننزله من السطح؛ وحتى لو ترك السكين في اللحظة الأخيرة سوف يأخذ «قسم خدمات الطفل والأسرة» اسحق منه ويتهمه بإساءة معاملة الأطفال. سوف نفعل ذلك لأن الله لا يكشف عن نفسه أو عن ملائكته أمامنا. نحن لا نسمع ما سمعه إبراهيم، ولا نرى ما رآه، مهما كان صادقا. ولذلك، فإن أفضل ما نفعله هو التصرف وفقا للمعايير التي يمكن لنا جميعا معرفتها، وفهم حقيقة أن جزءا مما نعرف أنه صدق، كأفراد أو طوائف دينية، لا يراه غيرنا بوصفه كذلك.

أخيرا، تتطلب أي مصالحة بين الدين والديمقراطية التعددية بعض القدرة على الحكم على الأهمية النسبية للأشياء. وهذا ليس غريبا كليا عن العقيدة الدينية؛ فحتى من يؤكدون عصمة الكتاب المقدس يميزون بين الأحكام والأوامر المقدسة، اعتمادا على الشعور بأن بعض الفقرات والآيات ـ مثل الوصايا العشر أو الاعتقاد بألوهية المسيح ـ لا تحتمل التأويل وتحظى بأهمية مركزية للدين المسيحي، في حين أن لغيرها مدلولات ثقافية ويمكن تعديلها وتأويلها لتناسب الحياة الحديثة. يفهم الشعب الأمريكي ذلك بالغريزة والبداهة، ولهذا السبب يمارس غالبية الكاثوليك تحديد النسل، ويعارض بعض مناهضي زواج المثليين إجراء تعديل دستوري يحظره. ليس على الزعامة الدينية قبول مثل هذه الحكمة في مشاورة رعيتها، لكن عليها الاعتراف بها في سياستها.

إذا كانت المقدرة على الحكم على الأهمية النسبية للأشياء ترشد النشاطية المسيحية، فيجب أن تهدي أيضا أولئك الذين يحرسون الحدود الفاصلة بين الكنيسة والدولة. إذ لا يعد كل ذكر لله أمام الملأ خرقا في جدار الفصل؛ ومثلما أقرت المحكمة العليا وأصابت، فالسياق أمر مهم. ومن المشكوك فيه أن يشعر الأطفال الذين يتلون «عهد الولاء» بالقمع كعاقبة للنطق بعبارة «تحت مظلة الرب»؛ لم أشعر أنا بذلك. إن السماح باستخدام المباني المدرسية للصلاة الطوعية يجب ألا يمثل تهديدا، تماما كما لا يمثل استخدامها من جانب النادي الجمهوري للمدارس الثانوية تهديدا للديمقراطيين. ويمكن تصور إقامة بعض البرامج المرتكزة على الدين ـ لمساعدة المذنبين السابقين أو المدمنين ـ التي تعرض طريقة مؤثرة وفريدة لحل المشكلات ومن ثم تقدم الدعم المناسب.

هـذه المبادئ العريضة لمناقشة الدين ضمن النظـام الديمقراطي ليست شمولية. علـى سبيـل المثال، سيكون مـن المفيـد إذا استطاعت المجادلات والمناظـرات المتعلقة بالأمـور التـي تلامس الديـن ـ مثلما هي الحـال في جميع المجـادلات الديمقراطية ـ مقاومة إغراء اتهام المخالفين في الرأي بسوء النية والانحراف عن جادة الدين. وعند الحكـم على مدى إقنـاع مختلف المزاعم الأخلاقية، يجب علينـا البحث عن التساوق في كيفيـة تطبيقها: كقاعـدة عامة، أنا أكثر ميلا إلى الإصغـاء إلى أولئك الذين تثير غضبهـم مشكلة التشرد الشائنة مثلما تفعل أفلام الفيديو الإباحية. نحن بحاجة إلى الاعـتراف بأن حججنا ومجادلاتنا تكون أحيانـا أقل اتصالا بما هو حق وصواب منها بمن يملك القول الفصل في نهاية المطاف ـ هل نحتاج إلى ذراع الدولة القاهرة لتطبيق قيمنا، أم من الأفضل ترك الموضوع للضمير الفردي والمعايير المتطورة.

حتى التطبيق الصارم لهذه المبادئ لن يحل بالطبع جميع المشكلات والصراعات. ورغبة الكثيرين من معارضي الإجهاض في استثناء حالات الاغتصاب وسفاح القربى تشـير إلى استعـداد لتعديـل المبدأ لاعتبـارات عمليـة؛ واستعداد أشد مؤيـدي إباحة الإجهاض حماسا للقبـول ببعض القيود على عمليات الإجهاض في المراحل المتأخرة مـن الحمـل يدل علـى اعتراف بـأن الجنين أكـثر من مجرد جـزء من الجسـم وأن للمجتمـع مصلحـة في الاهتمام بتطوره ونمائـه. ومع ذلك، هنالك نقطـة لا يستحيل عندهـا التلاقي بين أولئـك الذين يعتقدون أن الحياة تبدأ مـن الحمل وأولئك الذين يعـدون الجنين استطالة وامتـدادا لجسد الأم حتى ولادته. أفضـل ما نفعله عند تلك النقطة هو ضمان أن يقرر الإقناع لا العنف أو الترهيب النتيجة السياسية – وأن نعيد تركيـز بعض قدراتنا، على الأقل، علـى تقليص عدد حالات الحمل غير المرغوب فيها عـبر التثقيـف والتعليم (وترويج التعفـف) ومنع الحمل والتبنـي أو أي إستراتيجيات أخرى تحظى بدعم عريض وتأييد واسع وثبت نجاحها.

بالنسبة للعديد من المسيحيين الملتزمين، ينطبق على زواج المثليين العجز ذاته عن التسويـة وتقديم التنازلات. أجد مثل هـذا الموقف مقلقا، خصوصا في مجتمع يمارس فيـه الرجال والنساء المسيحيون علاقات الزنا غـير الشرعية وغيرها من الانتهاكات

بحق دينهم دون التعرض للعقوبات المدنية. وكثيرا ما جلست في الكنيسة وسمعت راعيها يتهجم على المثليين ويهزأ بهم ويسخر منهم ـ كأن يصرخ بأعلى صوته حين لا تسير العظة على ما يرام: «في البدء كان آدم وحواء، لا آدم وستيف!» أعتقد أن بمقدور المجتمع الأمريكي أن يختار نحت مكان خاص لاتحاد الرجل والمرأة كوحدة لرعاية الأطفال الشائعة في كل ثقافة. لست مستعدا لقبول أن تحرم الدولة المواطنين الأمريكيين من اتحاد مدني يمنح حقوقا متساوية فيما يتعلق بأمور أساسية مثل زيارة المستشفى أو الضمان الصحي لمجرد أن الشخصين الذين يتبادلان الحب من الجنس ذاته – ولا بقبول قراءة للكتاب المقدس تعد عبارة غامضة الدلالة باللغة اللاتينية أكثر تحديدا للمسيحية من عظة المسيح على الجبل.

لربما أعاني من حساسية تجاه هذه القضية لأنني خبرت الألم الناجم عن إهمالي. فقبل انتخابي، وفي خضم المناظرات والمجادلات مع السيد كيز، تلقيت رسالة هاتفية من واحدة من أقوى أنصاري. كانت صاحبة منشأة تجارية صغيرة، وأما كريمة، وشخصية عميقة التفكير. وهي أيضاً شاذة جمعتها علاقة حميمة بشريكتها طوال العقد الماضي.

عرفتْ عندما قررت تأييدي أنني أعارض الزواج بين أفراد الجنس الواحد، وسمعتني أقدم الحجة على أن تشديد التركيز على الزواج، في غياب أي إجماع هادف، يشتت الانتباه عن الإجراءات الأخرى الممكن تحقيقها لمنع التمييز ضد المثليين والشاذات جنسياً. واستحثت رسالتها الهاتفية في هذه الحالة بالذات مقابلة إذاعية أجريتها وأشرت فيها إلى تقاليدي الدينية في تفسير موقفي من القضية. أخبرتني أن ملاحظاتي جرحت مشاعرها؛ وأحست أن إقحام الدين في المعادلة يعني في دلالته اتهامها، وآخرين مثلها، بسوء الخلق والانحراف.

شعرت بالحزن، وأخبرتها بذلك. وحين تحدثت إليها تذكرت أنه بغض النظر عن زعم المسيحيين المعارضين للمثلية بأنهم يكرهون الذنب ويحبون المذنب، فإن مثل هذا الحكم يؤلم الأخيار والطيبين ـ والذين هم أشد إخلاصا لرسالة المسيح من الذين يوجهون الإدانات إليهم. تذكرت أيضاً أن من واجبي، لا كمسؤول منتخب في مجتمع

تعـددي وحسب بـل كمسيحي أيضاً، البقـاء منفتحا على احتمـال أن تكون معارضتي لـزواج المثليـين خاطئة، مثلما لا أستطيـع زعم العصمة من الزلـل في تأييدي لحقوق الإجهاض. يجـب أن أعترف باحتمـال تأثري بآفـة الأحكام المسبقـة والمتحيزة التي يتبناهـا المجتمع وينسبهـا إلى الله؛ وأن دعوة المسيح إلى أن يحب أحدنا الآخر تتطلب استنتاجات وترتيبات مختلفة؛ ولربما أبدو في السنوات التالية على الجانب الخطأ من التاريـخ. لا أعتقـد أن مثل هذه الشكوك تجعلني مسيحيا طالحـا. بل تجعلني إنسانا، محـدود القـدرات على فهم غايـة الله وغرضه، ولذلك فهو عرضـة للوقوع في الخطأ وارتـكاب المعصيـة. حين أقرأ الكتاب المقدس، لا أجده نصـاً جامداً سكونياً، بل نصاً حياً، وأشعر أن علي أن أبقى منفتحاً على أي كشف ملهم جديد ـ بغض النظر هل أتى من صديقة شاذة أو من طبيب يعارض الإجهاض.

هـذا لا يعني القول أنني غير متشبث بديني. هنالـك بعض الأمور التي أثق بها ثقة مطلقـة ـ القاعدة الذهبية (عامل الآخرين كما تحـب أن يعاملوك)، الحاجة إلى مناهضـة القسـوة بأشكالها كافة، قيمة الحب والإحسـان والخير، والتواضع، واللباقة واللطف.

هذه المعتقدات اتضحت وبانت لي قبل سنتين حين سافرت بالطائرة إلى برمنغهام (بولايـة الاباما) لإلقاء خطبة في معهد الحقوق المدنيـة. يقع المعهد في الجهة المقابلة للكنيسـة المعمدانيـة، حيث قتل عـام 1963 أربع فتيـات ـ إدي مـاي كولينز، وكارول روبرتسون، وسينثيا ويسلي، ودينيس مكنير ـ بانفجار قنبلة وضعها غلاة العنصريين البيض عند حضورهن الدرس الديني يوم الأحد، وقبل إلقاء الخطبة انتهزت الفرصة لزيـارة الكنيسـة. استقبلني راعي الكنيسـة الشاب وعدد مـن الشمامسة عند الباب وشاهدت آثار الشظايا على الجـدار، والسـاعة في القسـم الخلفي من الكنيسـة التي ما زالت متوقفة عند الساعة 10:22 صباحاً. تفحصت صور البنات الأربع.

بعد الجولة، أمسكنا أنا وراعي الكنيسة والشمامسة أيدينا وتلونا صلاة. ثم تركوني لأجلس في أحد المقاعد وألملم أفكاري. تساءلت عما حدث لآباء وأمهات هؤلاء الفتيات قبل أربعين عاما، بعد أن اختطفهن من الحياة هذا العمل الوحشي الذي كان عشوائيا

ولئيماً وحقوداً في آن؟ كيف تحملوا الألم والحزن والتبريح لو لم يتأكد لهم وجود هدف يكمن وراء جريمة قتل بناتهم، وأن ثمة معنى يمكن استخلاصه من هذه الخسارة التي لا تعوض؟ شاهد هؤلاء الآباء والأمهات المعزين يتدفقون من جميع أرجاء البلاد، وليندون جونسون يعلن على التلفزيون الوطني أن الوقت قد حان، والكونغرس يصدر في نهاية المطاف قانون الحقوق المدنية لعام 1964. أكد لهم الأصدقاء والغرباء على حد سواء أن بناتهن لم يمتن عبثا ـ وأنهن أيقظن ضمير أمة وساعدن في تحرير شعب؛ وأن القنبلة قد فجرت سدا لتتدفق العدالة كالسيل الجارف والفضيلة كالشلال الهادر. لكن هل كانت حتى هذه المعرفة كافية لمواساتهم، وإبعادهم عن حافة الجنون وتهدئة غضبهم الدائم العارم ـ لولا ثقتهم أيضا بأن أطفالهم انتقلوا إلى مكان أفضل؟

تحولت أفكاري إلى أمي وأيامها الأخيرة، بعد أن انتشر السرطان في جسمها كله، وتبين أن لا أمل لها بالشفاء. كانت قد اعترفت أمامي خلال مرضها بأنها ليست مستعدة للموت؛ لأنه فاجأها وأخذها على حين غرة، كأنما العالم المادي الذي أحبته بهذا القدر قد انقلب عليها، وخانها، وغدر بها. ومع أنها حاربت بشجاعة، وتحملت الألم والعلاج الكيماوي برضى ورحابة صدر حتى النهاية، إلا أنني رأيت أكثر من مرة نظرة خوف في عينيها. خوف يتجاوز الخشية من الألم أو من المجهول، ما أرعبها الشعور بالوحدة عندما يأتي الموت، كما أظن ـ فكرة أنها في هذه الرحلة الأخيرة، في هذه المغامرة الأخيرة، لن تجد أحدا تتقاسم تجربتها معه، أو يعجب معها بقدرة الجسم على إيلام نفسه، أو يضحك على عبثية الحياة الصارخة حين يبدأ الشعر بالتساقط وتغلق الغدد اللعابية.

حملت هذه الأفكار معي حين غادرت الكنيسة وألقيت خطبتي. في وقت متأخر من تلك الليلة، بعد عودتي إلى شيكاغو، جلست إلى مائدة العشاء، أراقب ماليا وساشا تضحكان وتتشاجران، وترفضان أكل طبق الفاصولياء، قبل أن تطاردهما أمهما إلى الطابق العلوي. وحين كنت وحيدا في المطبخ أغسل الأطباق، تخيلت البنتين تكبران، وشعرت بالألم الذي يحسه كل أب في وقت ما، تلك الرغبة في اقتناص كل لحظة من حضور طفلك والتشبث بها ـــ تسجيل كل حركة وإيماءة، والاحتفاظ إلى الأبد بمنظر

خصــلات شعره والإحساس بلمسة أصابعه. تذكرت ساشا وهي تسألني ذات مرة عما يحـدث لنــا حين نموت، وقالت دون مبالاة: «لا أريد أن أمـوت يا أبي»، فعانقتها وقلت: «أمامـك طريق طويل طويل قبل أن يقلقك هذا الأمـر»، وبدا أن الجواب قد أرضاها. تساءلت هل كان يجب أن أخبرها الحقيقة، وأنني لست واثقا مما يحدث حين نموت، مثلمـا لا أعـرف أين تذهب الـروح أو ماذا كان يوجد قبل الانفجـار الكبير. لكن حين صعـدت الدرج عرفت ما كنت آمل به ـ أن تكون أمي مع أولئك الفتيات الأربع، وقادرة بطريقة ما على عناقهن، والاستمتاع مع أرواحهن.

عرفت أنني حين وضعت طفلتيَّ في فراشهما لتناما نوما هانئا مريحا، فهمت شيئا عن السماء والجنان.